

الامام الفقيه ابن حزم شاعراً وأديباً

للاستاذ محمد ابراهيم جدع

شعر الفقهاء وأدب الفقهاء مثال رفيع في الادب العربي لانه يتدفق من قلب مدرك لمكانة الفن واع لاتجاهات الفكر ولان هؤلاء الفقهاء أخذوا على درس المسائل الفقهية وتوجيه الاحكام ومناقشة الافكار والفتاوى في دقة وعناية وفي انتباه ووعي فاللمسة الفنية من هؤلاء نجد فيها فكرا ونجد فيها فهما ونلمس فيها ارتقاء بالفن يتفق وسمو تفكيرهم العميق وتقديرهم لمقابلة المعاني للالفاظ في غير ما نفور ولا اضطراب يعطون اللفظ حقه من جمال التعبير ويلبسون المعاني حسن الصياغة .

ولكن ابن حزم يزهّد في هذا الجاه ويعرض عن منصب الوزارة ليقبل على العلم فقد كان عالما قبل أن يكون وزيرا يتفرغ للعلم لانه يرى أن جاه العلم أجل وأعظم من جاه الحكم فما عاش الا لهذا الجاه فهو يكتب وينظر ويحاج ويرى في هذا الاتجاه جاهها ورفعة ومقام سؤدد وارتقاء نجد هذا جلياً في شعره حين قال :

أنا الشمس في دنيا العلوم منيرة

ولكن عيبي ان مطلعني الغرب

وان رجالا ضيعوني لضياع

وان زمانا لم أنل خصبه جذب

ونحن لا نريد بحث سيرة ابن حزم الوزير ولا ابن حزم الفقيه وانما نريد بحث سيرة ابن حزم الاديب الشاعر وهو يعبر عن الحب وقد مارسه وعن الجمال وقد تذوقه وعن سلطان الحب وقد سيطر عليه وعن فتنة الجمال وقد شغف به ولم يخرج سلطان الحب الامام عن وقاره ولم تزل به فتنة الجمال عن كماله . ذلك ان الحب طبع انساني راق يرتفع بالنفوس الكريمة الى أسمى محاسنها تتلطف به النفس وترق وتشيع في صفاتها معاني الانسانية السامية لانه الحب الانساني الكبير وهذا ما شوقنا الى مطالعة نقثات الامام المحب في كتابه (طوق الحمامة) حقه

وما كان كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري الا مرآة تلك المواهب الفكرية السامية تختار أرق العبارات لاسمى المعاني وتقابل حسن الالفاظ بأجل المعاني وأدقها فاذا ما أضيف الى هذه الصفات الجليلة من علم باللغة ودراية وخبرة باحكامها وتفهم لاساليبها موهبة الابداع والابتكار معبرة عن طاقتها شعرا أو نثرا بجانب التفقه في الدين والتمكن في معرفة أحكامه واصدار الفتاوى على أدلة التشريع كان لهذا الشعر أثر بعيد في الارتفاع بالاحاسيس والارتقاء بالعقول وكان لهذا النثر من سحر البيان ما يخلب بالالباب وهذا ما توافر فضله للامام الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن صفيان بن يزيد ، مولى يزيد بن أبي سفيان فالجسد النازح الى الاندلس والاسرة التي توارثت العلم صاغرا عن كابر أضف الى هذه الامجاد علو مقامها في تاريخها المجيد في مجالات الحكم وشئون الملك وصحبة الملوك ومقاعد الوزارة .

نشأ ابن حزم بين جاه الملك في منصب والده وقد وزره المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ولابنه المظفر بعده لينتقل هذا الجلال الى الابن الامام الفقيه ابن حزم فيزره المستظهر بالله عبد الرحمن ثم المعتمد بالله .

الاستاذ حسن كامل الصيرفي وقدم له الاستاذ ابراهيم الابيارى ومن لهذا الكتاب غير هذين الاديين الجليلين يحققان ويقدمان له والامام ابن حزم جدير بهذا كله قمين بأن يقع أدبه وشعره من النفوس موقع التجلة والاهتمام واذا فنحن أمام بحث أدبي يطالعنا بشخصية تاريخية لها جلالها العلمي وجاهاها الوزارى وطبعها الشعارى ولسنا قادمين على بحث جلالها العلمي لانه قد أفصح في شعره ما استهدف له من نعمة وسخط حين قال :

وان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائي

وينزل ان أنزل ، ويدفن في قبوري

دعوني من احراق رق وكاغد

وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

والا فعودوا في المكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون لله من ستر

وهذا شأن امام أثر الاستقلال برأيه مع خصومه وحساده ومناوئيه أما جاهاها الوزارى فقد عف عنه وزهد فيه الى العلم الذى رأى فيه الجاه والعزة والمكان الرفيع فما لنا والبحث عن اتجاه أثر فيه الامام ما يراه أمثل وأسمى لاحساسه الكبير واذا فعلياً أن نبحت هذه الشخصية الجليلة في طبعها الشعارى ويتبين هذا جليا في مكانة الامام الفقيه حين أشار الاستاذ الابيارى في مقدمته الى ما قاله ابن بشكوال : كان أبو محمد أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير وال اخبار) وقول أبي مروان بن حيان فيما يروى عنه : كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الادب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة .

ولقد كان ابن حزم وهو يحدثنا بطبعه الشعارى عن الحب في كتابه (طوق الحمامة) فندلمس في حديثه الحب الفلسفي الذى يسمو بالروح الى مرتبتها العلية ولا ينزل

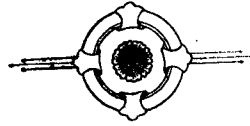
بها الى لذة الجسد وشهواته العارمة لذلك نلمس حديثه عن الحب صافيا يفيض رقة وعذوبة فلا تنتهي من باب من أبواب كتابه حتى تكون أكثر شوقا لما يليه من باب وما تنتهي من الكتاب كله الا وانت تحس انك ارتفعت باحساسك الى فلسفة في الحب اتسعت بها آفاق نفسك ورأيت الوجود كله أمامك حبا وفتنة وجمالا . . ثم هو يرفع بنفسه أن تنزل الى مفهوم العامة للحب وان الحب الانساني أرفع وأجل من هذا المفهوم المنحدر حين قال في أول باب من أبواب كتابه :

(وسأورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته فلا تنكر أنت ومن رآها علي اني سالك فيها مسلك حاكمي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فان اخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه الي) .

واذا فللحب طرائق ومذاهب شاء هو أن ينحو النحو الذى يختلف عن طرائقهم ومذاهبهم بعد أن كلفوه القول فيه ولكل منهم طريقته ومذهبه في مفهوم الحب الكبير ، ترى أكان الامام يقول هذا القول ترفعا عن الحب الآثم أم هو يقوله حذرا وتقية أن يتهم في كبريائه ووقاره ستكشف لنا الجولات القادمة في أبواب الكتاب عن الاتجاه المثالي في حب الامام الفقيه وأقواله عن هذا الحب وهل ما يقوله حقيقة يرتفع بها عن الحب الآثم أو هو تقية وحذر ليرفع بكبريائه ووقاره عن مسلك هو لا يسلكه وطبيعة هو لا يمارسها أو كما يقول في سابق كلامه الذى أوردناه هنا : انه سالك فيها مسلك حاكمي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر) ونحن لا نقطع برأينا في هذا أو ذاك حتى نقف على أقوال المدعى وأدلتة وشواهده فمن أقواله لصديق له : (وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيذا ولا مفتثتا ، لكن موردا لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حظي وسعة باعي فيما أذكره ، فبدرت الى مرغوبك ولولا الايجاب لك لما تكلفته فهذا من الفقر ، والاولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها الا فيما نرجو به ربح المنقلب

وحسن المآب غدا) الى هنا ونحن نستمع لاقوال الامام بريئة عفيفة لا اثم فيها ولا هجر فهو يرجو رحب المنقلب وحسن المآب غدا ثم يعقب على هذا بقوله : (وان كان القاضى حمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائذ باسناد يرفعه الى أبي الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق . ومن أقوال الصالحين من السلف المرضى من لم يحسن بتغتي لم يحسن بتقوى . وفي بعض الاثر أريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد) وهذا وجه آخر يعبر عن حاجة النفس الى الترويح عنها . وایناسها وكان الامام الفقيه يرى في حديث الحب ترويحاً لها وایناسا لانه عاطفة انسانية راقية ولكن الامام يقرر حقيقة لا تقبل النقض عن شعوره واحساسه أمام هذا الترويح وهذا الایناس حين قال لصديقه وقد كلفه أن يصف له رسالة الحب : (والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركنه عنايتي وحدثني به الثقات من أهل زمانه فاغتفر لي الكتابة عن الاسماء فهي اما عبورة لا نستجيز كشفها واما نحافظ في ذلك صديقا ودودا ورجلا جليلا) لقد شاهد الامام

وأدركنه العناية فيما شاهد وفي حديث الثقات من أهل زمانه ولا حرج في المشاهدة وما أدركنه العناية وفي الاستماع الى حديث الثقات اما أن يكتب عن الاسماء فهذه اساءة لاصدقائه أو عبورة لا يجوز كشفها وهنا يتجلى أدب العلماء وحيأؤهم واكتمال شخصياتهم هنا تظهر الرفعة وعلو المقام وقوة الشخصية ولكنه لا ضير عليه اذا قال باسم من لا ضرر في تسميته حيث يقول (وبحسبي أن اسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره ، أما لاشتہار لا يغني عنه الطي وترك التبیین وأما الرضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة انكار منه لنقله) فأی ضير عليه في خبر شاع وأمر ذاع ولم يكن هو المخبر عنه ولا المذيع له والى حديث آخر نغضى معه في رسالة الحب في صفته ومعانيه وأسبابه وأعراضه كما قال الامام ابن حزم رحمه الله (ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ولا وکلنا الى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلد آرابنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا) رحم الله الامام وعفا عنه .



استدراك

وقع خطأ مطبعي في الجزء الماضي من المجلة حيث ذكر فيه في صفحة ٤٨٨ اسم المرحوم محمد كرد علي تحت عنوان كلمة « النجاح في الحياة » والصحة أن هذه الكلمة هي للمرحوم الدكتور أحمد أمين .